

إنطباعات حول المدينة الإسلامية بإقليم الأوراس

في ضوء النصوص الجغرافية

الأستاذة ريغي حدة

قسم التاريخ جامعة محمد بوضياف المسيلة

ملخص:

يهدف هذا المقال إلى تقديم دراسة هستوغرافية و أركيولوجية توصيفية دقيقة لأقوال الجغرافيين العرب والأجانب حول المدن الإسلامية بإقليم الأوراس خلال العصر الوسيط. عبر قراءة متأنية للنصوص العلمية الموثقة المتاحة في المصادر و المصنفات، و ذلك من أجل تسليط الضوء على منطقة قلما نجد عنها دراسات جادة منفصلة.

Résumé :

Cet article a pour objet L'étude historiographique et archéologique descriptive minutieuse et adéquate scientifiquement, Concernant chichement Les cités musulmanes au niveau des Aurès Durant Le moyen âge. Derechef cela ne parviendra que par La consultation pertinente du strict minimum

Des textes géographiques arabes et étrangers. Dans L'objectif d'éclaircir un

Pan obscur dans L'histoire géographique de notre pays pendant L'ère médiévale.

مقدمة:

يعالج موضوع مقالي هذا عرض حال المدينة الإسلامية بإقليم الأوراس في ضوء المتاح من النصوص الجغرافية المقتضبة، و الشحيحة المسنودة ببعض المصادر التاريخية ذات الصلة عبر عملية إستقرائية تحليلية قدر المستطاع إنطلاقاً من المادة العلمية المتوفرة في الكتب القيمة، و المصنفات النفيسة، و هي دراسة بقدر ما تستهدف الإحاطة بمختلف النصوص، و رصدها من مظانها، تستهدف دون ريب محتوياتها باعتبارها دلالات متباينة المشارب و الرؤى، تترجم لأوضاع الموصوف الذي نسعى بكد آملين تصميم صورة واضحة المنظور، و الشكل عنه. إذن من هذا المنطلق هل وفّت المدينة الإسلامية بإقليم الأوراس الشروط التي أقرها كل من ابن أبي زرع، و ابن خلدون، و ابن القاضي، وهل احترمتها وفقاً لنظام تخطيط المدن الذي جاءت به الدولة الإسلامية الفتية من المشرق جعلته واقعاً معاشاً في بلاد المغرب، أم أنها جاءت على خلاف ذلك مستمدة جذورها، و أركانها من معين، و منيع غير الذي منح منه أولئك الجهابذة الذين أرخوا للمدينة في بلاد المغرب أثناء العصر الوسيط ؟ هذا الذي سنحاول الإجابة عنه بعد قراءة متأنية، و متفحصة لبعض النصوص الجغرافية المصدريّة حسب أهميتها على النحو التالي:

يذهب علي بن أبي زرع (ت 726هـ/ 1326م) صاحب الأنيس المطرب إلى أن الحكماء قرأهم فيما شغل فكرهم بشأن شروط المدينة، على أن " أحسن مواضع المدن أن تجمع خمسة أشياء و هي: " النهر الجاري، و المحرث الطيب، و المحطب القريب، و السور الحصين، و السلطان، إذ به صلاح حالها و أمن سبلها و كف جبابرتها...⁽¹⁾، يستفاد من النص أن المدينة بخاصة في العصر الوسيط ببلاد المغرب، بل منذ بداية الخليقة في أنحاء المعمورة قاطبة قمينة بأن تشد بنواجزها على هذه الشروط، و لا تتخطاها شبرا واحداً، و أن تلتزم بتطبيقها جميعها لا ينقص منها شرط واحد. أما عبد الرحمان بن خلدون (ت: 808هـ/ 1406م) صاحب كتاب العبر فيرى في هذا الأمر بأن " يراعى فيه دفع المضار بالحماية من طوارقها، و جلب المنافع و تسهيل المرافق لها"⁽²⁾، و قد قدم ابن خلدون نصه مشفوعاً بشرح مستفيض لأمزيد عليه. و هذا الرأي سالف الذكر بمقدوره أن يخدم موضوعنا، علاوة على أننا يمكن أن نستفيد منه في إبراز جوانبه الأكثر غموضاً بتسليط الضوء عليه، كما يمدنا بمعطيات إضافية، إلا أنه لا يتسع المجال هنا للخوض فيها، من أجل ذلك أكتفينا بذلك المقطع الموجز من نصه لتوضيح وجهة نظره من جهة، و وجهة نظر هؤلاء الذين تطرقوا بالدراسة و التحليل إلى الموضوع من جهة ثانية، لعلنا

بهذا العرض المختصر نفي المدينة الإسلامية قدرها و نعطيها حقها المستحق في مجال التاريخ، و الآثار، و الجغرافيا.

أما الشروط التي وضعها ابن القاضي فتتمثل في " سلطان حاضر، وطبيب ماهر، و نهر جار، و قاض عدل، و عالم عامل، و أسواق قائمة..."⁽³⁾، فهي تكملة للنقص الملاحظ في النصين السابقين، الذي لم ينتبه إليه ابن أبي زرع، و ابن خلدون، و ربما جاء ذلك منهما سهوا، و بهذه الآراء مجتمعة تكون المدينة الإسلامية في بلاد المغرب ملزمة بتنفيذ مضامينها _ شروط المدينة _ حتى تكون قاب قوسين أو أدنى من المدينة الفاضلة التي ابتكرها المعلم الثاني الفارابي من بنات أفكاره، أو قريبة من جمهورية أفلاطون. فهل كانت فعلا مدن إقليم الأوراس كذلك، متناغمة التخطيط، متجانسة أم لا؟

يجيبنا الجغرافي ابن حوقل (ت:367هـ/977م) عن ذلك السؤال بشيء من الإيجاز في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي بذكره لمدينة طبنة المعروفة حاليا ببريقة بأن أهلها كانوا مزارعين حادقين ينتجون نبات الكتان⁽⁴⁾، فرغم أن هذه المدينة نسبت إلى الزاب بل كانت عاصمة له فيما مضى إلا أنها تنتهي دون جدال إلى إقليم الأوراس الذي يقع في الأطلس الصحراوي على ارتفاع ما لا يقل عن (1058م) فوق مستوى سطح البحر،⁽⁵⁾ و هي بوصف ابن حوقل حققت بندا من شروط المدينة المذكورة ألا و هو المحرث الطيب، و الأرض الخصبة المعطاء، فلا يستغنى عنه بأي حال، و مهما حدث لتحقيق الأمن الغذائي، وضمائه في كافة المدن كائنة ما كانت منطلقاتها السياسية، و الدينية، و الثقافية، و الحضارية، إضافة إلى موقعها الجغرافي الممتاز.

و يشير البكري (ت: 487هـ/1094م) في السياق ذاته بأن " قرية مسكيانة و هي على نهر...ومنها إلى مدينة باغاية و هي مدينة جليلة أولية ذات أنهار و ثمار و مزارع و مسارح و على مقربة منها جبل أوراس".⁽⁶⁾ و مما لاشك فيه أن إقليم الأوراس بنظر هذا الجغرافي، حفل بتشييد العديد من المدن ذات الصيت الواسع التي ترجع للأمم السالفة، و التي تربعت على عرش البلاد، بالرغم أن وظيفتها الأولى كانت موجهة لتحقيق أغراض استراتيجية، و عسكرية بحتة ثم أنها أخذت طابعا مدنيا فيما بعد عبر مسيرة التاريخ الممتدة لاسيما في فترة حكم الممالك النوميديّة الوطنية على عصر الأغليد غايا والد العاهل ماسينيسا (238-148 ق.م)، ثم أثناء حكم الإمبراطور ترجانوس (Trajan)(98-117 م) الذي عمل بجد على إطالة عمر الاحتلال الروماني على محور الزمن، حيث شهدت

المنطقة في عصره ظهور المدينتين الكبيرتين لمبيس (Lambaesis)، و تيمقاد (Thamugdi) في أواخر القرن الأول، و بداية القرن الثاني الميلادي⁽⁷⁾ مشجعا بمنجزاته تلك الفرقة الأغسطينية الثالثة على الاستقرار، و مدعما لها. و قد سقنا هذا المثل من الزمن القديم، قصد لفت الانتباه إلى عراقية، و أهمية، و أصالة المكان الذي نال إعجاب الرومانو جذبهم إليه في هذه الحقبة الزمنية، فما بالك بروعة موقعه، و غناه ووفرة غلاته، و خيرات، و ضروب الزروع المتفاوتة الذوق و الطعم، و مياهه النميرة، و هواءه العليل، و حصانته الطبيعية، زيادة إلى وعورة تضاريسه، و مسالكه، و دروبه، التي أهله دون ريب إلى أن يتبوأ مكانا خطيرا في العصر الوسيط.

و يذكر صاحب كتاب الاستبصار أثناء القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي إلى أن " من الجبال المشهورة بإفريقية جبل أوراس، و هو جبل خصيب فيه مدن كثيرة و فيه آثار كثيرة للأول و مدن خربة، مثل مدينة طنفة، و كانت مدينة قديمة فيها آثار عجيبة. لقد رأيت فيها بيتا له عضادتان من حجرين مثل جبلين..."⁽⁸⁾ و ما نستخلصه من هذا النص على سطحته، أنه أكد ما تم الحديث عنه قبل حين، نظرا لكونه حسب قوله أنه زار تلك الخرائب، و شاهد بأمر عينه أطلال المدن العتيقة التي اندرست معالمها عن كذب بعدما تعرضت لعاديات الزمن، و آل مصيرها إلى الزوال، حتى أنها لم تبق إلا أثرا بعد عين.

إلا أن الشريف الإدريسي (ت: حوالي 548هـ/1154م) لا يذكر من مدن الأوراس إلا نقاوس، و طبنة التي أقام بها الكونت الروماني بونيفاس (سنة 427م) عندما أشدت الأزمة السياسية و العسكرية و كادت تعصف بالبلاد غداة الزحف الوندالي بقيادة جنسريق على المنطقة، و هو دليل لا يعتوره الشك بتاتا على مكانة المدينة في عيون القادة العسكريين الأجانب، حتى أنه لم يتعرض لتلك الأحداث بأي شكل من الأشكال، مقتصرًا على مجارة أضرابه الجغرافيين، و متبعا منهمجهم، و كأنهم تعلموا على يد شيخ واحد: " و جبل أوراس... و مياهه كثيرة و عمارته متصلة و في أهله نخوة و تسلط على من جاورهم من الناس، و من مدينة طبنة إلى مدينة نقاوس مرحلتان و مدينة نقاوس صغيرة كثيرة الشجر و البساتين و أكثر فواكهها الجوز و منها يتجهز به إلى ماجاورها من الأقطار و بها سوق قائمة و معايش كثيرة... إلى حصن بادس و هو في أسفل طرف جبل أوراس"⁽⁹⁾. و أغلب الظن أن الإدريسي نقل عن البكري مثل غيره من الجغرافيين العرب، قبل أن

تتطور الجغرافيا، و تصبح علما قائما بذاته له مناهجه، و أساليبه، و مدارس، و أدواته، بعد أن تجسدت معاملته الراسخة مع هذا الأخير الذي ابتكر الخريطة الجغرافية و وضعها لأول مرة في تاريخ الإنسانية.

كما يتفق ياقوت الحموي (ت: 626هـ/ 1228م) مع صفى الدين البغدادي الذي نقل عنه على أن: "أوراس بالسین المهملة: جبل بأرض إفريقية فيه عدة بلاد و قبائل من البربر"، و من مدن هذا الإقليم تيفاش التي في أسفل الجبل⁽¹⁰⁾، وقد ذهب معا في الطريق نفسها التي سلكت من قبل نظرائهم دون إضافات معتبرة من شأنها أن تميط اللثام، أو تزيج الستار عن الغموض الذي اكتنف هذه الدراسة، فانحصرت اسهاماتهم في العموميات المتفرقة في جميع النصوص المشار إليها تباعا، من غير أن تسلط الأضواء الكاشفة على منشآت المدينة، و مكوناتها العمرانية، بما تحويه من المرافق العامة، و الخطط الموزعة على الأحياء، و الأزقة، و الحارات، و الدروب استنادا إلى فقه العمران الإسلامي.

أما ابن سعيد المغربي (ت: بعد 673هـ/ 1274م) فيقول في ذات الشأن: " جبل أوراس المشهور الذي كانت فيه الكاهنة، و سكانه أهل دعاة و عصيان لا يدخلون تحت طاعة سلطان لا تمتناع جبلهم الطويل العريض، و لما عندهم من الحيل و الرجالة و الأسلحة و هو كثير الخيرات و أهله خوارج و معظمهم من لواتة، و هم خلق كثير داخلون في الرعية"⁽¹¹⁾. أما ابن خلدون فيقول بشأن أصل أهل المنطقة الذي ينحدرون منه " و كان موطن جراوة منهم جبل الأوراس"، في خضم التناقضات، و تضارب آراء المؤرخين حول هذه النقطة بالذات المنتشرة في المؤلفات المختصة هنا و هناك، بخصوص سكان الأوراس، و انتماءاتهم العصبية، و القبلية، فإننا نكاد نجزم، بل نقر بأنهم من زناتة أعظم قبائل البربر استنادا إلى نص عبد الرحمان بن خلدون، و مسايمة له لأنه الأكثر رجحانا، و ميلا للحقيقة التاريخية، و كونه يبدون منازع عميد مؤرخي البربر قتل موضوع المدينة المغربية و عمرائها بحثا، و دراسة بتعبير الدكتور صالح بن قربة، وهو لعمري صادق فيما ذهب إليه من قول، لم يحد عن جادة الصواب قيد أنملة.

و في نهاية المطاف يأتي الحسن الوزان (ت: بعد 957هـ/ 1550م) في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي ليدلو بدلوه مع الجغرافيين السابقين في وصف بعض مدن الأوراس مثل نقاوس التي يقول فيها: " مدينة تتاخم نوميديا بناها الرومان على بعد نحو مائة و ثمانين ميلا من البحر المتوسط، و ثمانين ميلا من مسيلة، تحيط بها أسوار متينة

عتيقة، و يجري قربها نهر ينبت على ضفافه شجر التين و الجوز. و تين البلاد شهير بأنه أجود تين في... و توجد حول نقاوس سهول تصلح كلها لزراعة القمح، و السكان أغنياء أمناء كرماء، لباسهم لائق كلباس سكان بجاية المدنيين. و للجماعة دار أعدوها ملجأ لإيواء الغرباء، و مدرسة للطلاب يتكفلون بلباسهم و يتحملون نفقاتهم..."⁽¹²⁾. و النشاط الزراعي في الأوراس قديم ازدهر بانشاء المستثمرات الفلاحية الكبرى التي كان يطلق عليها اسم اللاتيفونديا، و السالتوس إبان الوجود الروماني، التي أنيطت بها مهمة توفير الزيوت، و القمح، و لا شك أن المسلمين واصلوا تلك المسيرة بجهد، و استفادوا من إنتاج الأرض قبل أن تصبح شبه قاحلة، جرداء، لا تكاد تنبت ما يقتات به سكانها.

ثم أن الحميري(ت: في أواخر القرن التاسع الهجري) يعتبر الأوراس " جبل قريب من باغاية بإفريقية بينه و بين نقاوس ثلاث مراحل و هو المتصل بالسوس...ومياهه كثيرة و عمارته متصلة. و من هذا الجبل قام أبو يزيد مغلد بن كيداد الزناتي النكاري في سنة ثلاث و ثلاثمائة واستفحل أمره و عظم شأنه واستولى على كثير من البلاد الإفريقية...و في جبل أوراس كانت الملكة المعروفة بالكاهنة المقتولة في الفتح الأول على يدي المسلمين"⁽¹³⁾، و المعروفة في إقليم الأوراس باسم " دهيا بنت ماتيه بن تيفان" فلقد ورد الحديث عنها في حديث طويل يستحسن الرجوع إليه لاحقا و الإطلاع عليه من مصادره، و هذا النص مسنود بأحداث تاريخية من أيام الفتوحات الإسلامية، و تبعاً لما تقدم يلاحظ أن الحميري لم يضيف شيئاً ذا بال عمن تقدمه.

وفي آخر الركب جاء الإسباني مارمول كريخال ليختم به أقوال الجغرافيين، إذ يرى أن الأوراس " جبل عال وعر على مسافة ثلاثين فرسخاً من بجاية وعلى مسافة خمسة وعشرين فرسخاً من قسنطينة...وفي أعلاه تجري مياه بعض الجداول و تنتهي إلى سبخات تجففها الشمس و يترسب فيها الملح..."⁽¹⁴⁾. و كأنه بهذا الوصف يلخص لنا المنقلب الذي آل إليه إقليم الأوراس بعدما كان مضرِباً للأمثال في انتشار أغراس الزيتون، و توسع العمران، و تبحره بتعبير ابن خلدون، و من سار على نهجه⁽¹⁵⁾، علاوة على رفاهية الحياة و رغدها التي نعمت بها الأمم التي كانت قبلنا، و تمتعت في بساينته، و ينابيعه، و أنهاره، و فواكهه، و لحومه السمينة، و خيوله الفارهة، المطهمة، ألم يكن الأوراس بمعية مدنه، و كوره، و قراه، و دساكره، في الأيام الخوالي عبارة عن خزان روما الذي لا ينضب.

خاتمة:

إن الانطباعات الضئيلة التي ضمنتها طيات هذه الدراسة، صورت لنا بدقة متناهية واقع، وأجواء مدن إقليم الأوراس عبر النصوص الجغرافية العربية، و التاريخية رغم قلتها، و شحتها، و أكدت بما لا يدع مجالا للشك أن المنطقة عرفت منذ القدم المدينة التي لفتت إليها أنظار الغزاة، و الطامحين إلى نيل المجد الأثيل على حسابها من أباطرة رومان، ومغامرين وندال، و فاتحين مسلمين نظرا للموقع، و الموضع الإستراتيجي الهام الذي جبلت عليه من لدن حكيم خبير، فضلا على توفرها على منابعالخيرات، و ضروب الزروع، و صنوف الغروس، و أسباب الراحة. فمن أجل ذلك جميعا كانت مقصداً ضرب إليه أكباد الإبل من كل حذب و صوب، ألم يستفد الرومان من قموحها، و زيوتها في القرنين الأول و الثاني الميلاديين بل خلال مرحلة الإستيطان كلها(146 ق.م_429م)، ثم أقبل عليها الوندال بقضهم وقضيضهم، و بعدها أحتلها البيزنطيون إيماناً منهم بطيبة أرضها، ولما جاءها الفتح الإسلامي منقذاً لها من الضلال، جعل منها الفاتحون معقلاً للدين الحنيف، و بعد هذا ألم توفي مدن إقليم الأوراس شروط المدينة التي تناولناها من مظانها، إنها حتما قد وفّت بها جميعها حينما كانت تدب فيها الحياة، قبل أن تصير إلى المهوى، و الهلكة، دون أن تخل بشرط واحد، مما ذكرنا في مستهل هذه الدراسة.

الهوامش:

- 1_ علي بن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، المملكة المغربية، 1973، ص، 33، وانظر: عبد الأحد السبتي، حليلة فرحات: المدينة في العصر الوسيط قضايا ووثائق من تاريخ الغرب الإسلامي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 1994، ص ص، 15-18.
- 2_ عبد الرحمان بن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، طبعة بيروت، لبنان، 1983، ج2، ص ص، 617-621.
- 3_ أحمد بن القاضي: جذوة الإقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس، ج2، المطبعة الملكية، الرباط، المملكة المغربية، 1973، ص، 33.
- 4_ ابن حوقل: كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، د.ت، ص، 85، وانظر: إسماعيل العربي: المدن المغربية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص ص، 178-181.

5_Henri Busson : « Les Vallées de L'Aurès », annales de geographie, V°9, n°43, France, 1900., p, 43., voir :Robert Lafitte : « **Structure et relief de L'Aurès (Algerie)**»,Bulletin de L'Association de geographes Français, V°16, n° 119, France, 1939., pp,34-40.

6_ أبو عبيد البكري: **المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب**، مكتبة المثنى، بغداد، د.ت.، ص، 507_Charles- André Julien : **Histoire de L'Afrique du nord des origines à 1830**, 3^e éditions, grande bibliothèque payot, Paris, 1994., p, 206., voir : Stéphane Gsell : **Les monuments antiques de L'Algerie**, T° 1, ancienne librairie Thorin et fils, Albert Fontemoing, éditeur, paris, 1901., p,76

8_ مؤلف مجهول: **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار و وصف مكة و المدينة، و مصر، و بلاد المغرب**، نشر و تعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، المغرب، 1985.، ص، 164.

9_ الشريف الإدريسي: **المغرب و أرض السودان و مصر و الأندلس مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق**، مطبعة بريل، ليدن، 1863.، ص ص، 94، 57.

10_ ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، ج1، دار صادر، بيروت، لبنان، 1977.، ص، 278.، وانظر: صفى الدين البغدادي: **مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة و البقاع**، تحقيق علي محمد الجاوي، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1992.، ص، 130.

11_ ابن سعيد المغربي: **كتاب الجغرافيا**، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.، ص، 28.

12_ الحسن بن محمد الوزان: **وصف إفريقيا**، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي و محمد الأخضر، ج2، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983.، ص، 53.

13_ محمد بن عبد المنعم الحميري: **الروض المعطار في خبر الأقطار** معجم جغرافي معفهارس شاملة، حققه إحسان عباس، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، 1984.، ص ص، 65-66.، وانظر:

أحمد بن عبد الوهاب النويري: **تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط (أفريقية و المغرب، الأندلس، صقلية و أقریطش)** (27-719هـ/647-1319م) من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق و تعليق مصطفى أبو ضيف أحمد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، المملكة المغربية، 1985.، ص، 197-198.، وانظر: موسى لقبال: **المغرب الإسلامي**، ط2، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1981.، ص، 62.، وانظر: صالح بن قرية، سامية بوعمران، خالف محمد نجيب: **تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر، منشورات المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954**، الجزائر، 2007.، ص، 25.، وانظر: صالح يوسف بن قرية: **حسان بن النعمان و دوره في نشر الإسلام ببلاد المغرب**، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2012.، ص ص، 5 و ما بعدها وانظر:

E. Mercier : « **Une page de L'histoire de L'invasion Arabe, La Kahena** », Recueil des notices et mémoires de la société archeologique de la province de Constantine, 2° volume de la deuxième série, L. Arnolet éditeur, Constantine, 1868., pp, 241-254.

14_ مارمول كريخال: إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي، محمد زهير، محمد الأخضر، أحمد بنجلون، ج2، مطابع المعارف الجديدة، الرباط، المملكة المغربية، 1988، ص، 390.

15_ Pierre Mouzot : « **L'Aurès et L'olivier** », Antiquités Africaines, V°29, France, 1993., pp, 177-179.